الحزن الدفين لفراق الابن

د. مفيد شهاب

لم أعد أضحك مثل كل الناس.. لم أعــد أفرح مثلهم.. وأصبح التجهم حزنًا وجزءًا من ملامحى.

obeikan.com

هناك إنسان قد يستطيع أن يحول الهزيمة إلى انتصار.. والأيام العصيبة إلى غد مشرق بالأمل.. قد يعصره الألم ويلفه الحزن.. ويغمد اليأس نصله فى روحه ونفسه فيقتلع الفرحة.. ولكنه يتملص.. يقاوم، يحاول.. يتحين الفرص فيقفز فوق المستحيل ويلقى بغبار الأيام المظلمة وراء ظهره.. وتتحول مرارة التجربة إلى ظلال تحجب عنه وجه الحدث القبيح ليطل بثوبه المزركش من جديد..

كان د. مفيد شهاب رئيس جامعة القاهرة الأسبق ذلك الإنسان.. ونعود معه لسنة ١٩٧١م.. فوجئ باعتقاله مع مجموعة من خيرة شباب مصر بسبب خلافات بين الرئيس السادات ومراكز القوى..

أحس بكراهية شديدة تكاد تقتلع أمامها كل القيم التى ترعرعت داخل نفسه وأقام عليها كيانه.. ماذا فعل حتى يكون مصيره السجن والتعذيب؟.. هل ضاعت سنوات الكفاح وراء قضبان السجن الحديدية الصماء؟

صرخات متسائلة.. اندفعت من صدره داخل زنزانته المظلمة.. أنين وأوجاع أطلت على لسانه فى احتجاج ورفض. ومن بين تضارب الاشياء أمام عينيه ومتاهة البحث عن الحقيقة يسترجع مفيد تاريخه منقبًا باحثًا فيه عن فعلة قد ارتكبها ويعاقب عليها الآن..

تذكر مفيد وهو يصارع بداخله الشك واليقين عندما خرج لأول مرة تاركا بلده مصر ليتم تعيينه نائبا لمدير الإدارة القانونية للصندوق العربى للإنماء الاقتصادى والاجتماعى تلك المنظمة العربية المتخصصة التى تتبع الجامعة العربية ومقرها الكويت.. هناك كانت تنظم الرحلات إلى الدول

النامية وتمنح قرضاً ومعونات لهذه الدولة للارتفاع بمستواها المعيشى.. وإعطاء المواطن حق الحياة الكريمة بدرجة يتوافر بها قدر من الإنسانية.

عادت به الذاكرة إلى سنوات مضت حين قرر السفر إلى فرنسا سنة ١٩٥٧م للحصول على الدكتوراه بعد تخرجه فى كلية الحقوق جامعة القاهرة، وكان الأول على جامعات القاهرة وعين شمس والإسكندرية.. كان همُّه الأول «العالم» وحماية البشر فى الدولة النامية الضعيفة. ويستمر المشوار ليحصل مفيد على جائزة أحسن رسالة دكتوراه من السوربون بفرنسا سنة ١٩٦٨م والتى تضمنت بين سطورها دور محكمة العدل الدولية وتغيير وخلق القانون الدولى من جديد.. من هنا دعا مفيد فى رسالته إلى إقامة محكمة دولية تتبع الأمم المتحدة لحماية الدولة الضعيفة وحل مشاكلها فى إطار الدستورية وحماية القانون.

وخلال السنوات التى قضاها د. مفيد بفرنسا وعاش فيها بالحى اللاتينى المتشبع بالثقافات المختلفة والفنون والسياسة.. استطاع أن يطل على الاتجاهات السياسية وينهل من كل مجالات الثقافة، خاصة أن الظروف بفرنسا كانت تهيئ له ذلك، فقد كان الطالب بفرنسا يمنح كل الامتيازات الممكنة والتيسيرات ليرتاد المسارح والأوبرا..عدة سنوات غيرت مفاهيم د. مفيد وشخصيته وأعادته كيانًا جديداً..

استمر تدفق الماضى بتفاصيله وأحداثه أمام عينى مفيد وهو قابع فى زنزانته.. يتلمس بيديه قضبانها الحديدية التى تفصل بينه وبين الحياة.

وعادت به الذاكرة إلى سنة ١٩٦٨م حين قرر بعد عودته من فرنسا وفكر فى عمل تنظيم سياسى للشباب أطلق عليه فيما بعد اسم «منظمة

الشـباب» اشـترك فيه الدكتور كمال أبو المجد والدكتور أحمد القشيرى والدكتـور عبد الأحد جمال الدين والدكتور حسـين كامـل بهاء الدين والدكتـور محمود شـريف والدكتور على الحفنى والدكتـور عبد الرازق عبد الفتاح.. كان الجميع مسـئولين عن إعطاء الشباب جرعة كبرى من الإحساس بالمسئولية تجاه بلده ووطنه مصر.. وعمل ندوات تثقيفية لهم حول السياسة الداخلية والخارجية لمصر وتنمية الوعى القومى لديهم..

وتم ترشيحه أمينًا عامًا للمنظمة وخرج بذلك من حيز العمل الأكاديمى كدكتـور بكليـة الحقوق إلى حيـز العمل العام المرتبط بحماس الشـباب ورغبته فى خدمة وطنه.

ويتوقـف تدفق الذاكرة لتعود به مرة أخرى إلى الواقع المرير وفشـله فـى معرفة السـبب الحقيقى الذى دفع بـه وراء القضبان.. ذلك الواقع الذى يقتلعه من اسـتغراق فى الدهشة والتعجب ويتسرب إلى روح مفيد وهو فى سجنه بصيص من الأمل عندما وجد أن إيمانه بوطنه وإخلاصه لـه كان دافعه الوحيد للعمل من أجل التضامن العربى وتأكيد دور مصر ومسئوليتها نحو هذا الفكر..

يرفع يديه بالدعاء وعيناه تتطلعان إلى السـماء ويسـتجيب الله بعد سبعة شهور من اعتقاله وتحكم المحكمة ببراءته من أى فعلة ارتكبها ! !

وحتى الآن.. لا يعلم!

وأكدت المحكمة فى حيثيات حكمها مدى إخلاص د. مفيد شهاب وتفانيـه فـى خدمة وطنه.. ويخرج من التجربة أكثر رسـوخا وإيمانا.. ويندفـع بكل قوته إلى الدفاع عن المظلوم ضـد الظلم والظالم مهما كانت

صورته ومكانته.. أو زمانه.. لا يهم من المظلوم، أهو طفل صغير يعتدى عليـــه من هو أكبر منه بالضرب.. أم طالب معوق فى حاجة إلى كرســـى متحرك أو طالب من الأقاليم يبحث عن مكانه بالمدينة الجامعية أو دور المغتربــين.. وأصبحت محاربة الظلــم عهدا وميثاقا فى حياة د. مفيد لا يحيد عنه..

وتســير الأيام إلى غد جديد فى حياة د. مفيــد.. ولكن هل اكتفت الأقدار بما أعطت وبما أخذت؟

أبى القدر المتمرد أن يقف موقف المتفرج.. إنه أعطى الكثير.. ولكنه يريد الأغلى.. أشــهر أنيابه من جديد.. مــد يديه ليقطف الضحكة من على شفتيه.. اختار ابنه وهو فى عمر الزهور.. اعتصر قلبه حتى استنزف كل دمائــه.. وماتت الفرحة داخله ورســم بعلاماته ملامح التجهم على ملامحه، فأصبحت جزءا لا يتجزأ منه..

يقول د. مفيد يصف مشــاعره.. سبعة عشــر عاما عمر ابنى الراحل امتزجــت فيها بضحكة طفلى وقفزاته عندما جــاء إلى الدنيا وهو يحبو ويشب عن الطوق وينطق الكلمة الأولى «بابا».. كان يأخذنى معه إلى دنيا هو أجمل ما فيها واندفع مع تساؤلاته الطفولية مع بدء النضج..

الآن بعد رحيله أصبحت أقل تعلقا بالحياة وأقل أمانا لها..

لم يعــد د. مفيد يضحــك مثل كل الناس.. تجهــم الوجه وأصابت القلب التجاعيد وارتســمت علامات الحزن فأصبحت خطوطا أساســية بملامح شخصيته..

❑❑❑